بسم الله الرحمن الرحيم

دعوة للتفكير العلمي:

الغرب والعالم، العلاقة بين السلطة والمعرفة:

حلقات تجدد الاهتمام بالقيم والأبعاد الحضارية في الدراسات السياسية الدولية:

كيف؟ ولماذا؟

أ.د.نادية مصطفى*

إن دورة الحضارات التي كشفت عن هبو ط الحضارة العربية الإسلامية (فكرًا وممارسة وإنجازًا: داخليًا وخارجيًا) بعد صعود وصل إلى قمته عبر عشرة قرون، اقترنت بصعود "الحضارة الغربية– المسيحية اليهودية". وهو الصعود الذي ارتكن إلى ركيزتين أو عمودين : **من ناحية** نقلة معرفية فكرية (ابتداء من العلمنة والوضعية ...) وتجلياتها على بناء ا لمفاهيم والنظريات وعلى النموذج المجتمعي والسياسي والاقتصادي برمته (محكومًا بقيم الصراع والمصلحة...) في إطار الدول القومية.

ومن ناحية ثانية : حركة كشفية استعمارية استيطانية متعددة الاتجاهات بدأت نحو ما أسمي "العا لم الجديد" وانتقلت إلى الدوران حول العا لم القد يم (الكشوف) ووصلت إلى الاستعمار التقليدي (تقسيمًا بين الدول الاستعمارية الكبرى) لقلب العا لم الأفروآسيوي ثم موجات الاستعمار الجديد بأدواته المتعددة في إطار الهيمنة الامبريالية العالمية والمركزية الأوروبية (في المعرفة والعلم والسلطة).

ولم تنعدم أشكال مقاومة هاتين الركيزتين المرتبطتين على نحو حال حتى الآن والساعيتين نحو الهيمنة الكاملة وتحقيق "العالمية" للنموذج الحضاري "الغربي"، العلماني الصراعي وتجلياته الفكرية وكذلك السياسية والاقتصادية والثقافية . وفي المقابل، لم تنعدم المقاومة المضادة من جانب هذا النموذج الغربي، تلك المقاومة التي اتخذت صورتان: الصورة الأولى هي النقد والإصلاح الذاتي من أجل ا لتكيف ودعم عناصر القوة الذاتية من خلال استكشاف روافد ونماذج أخرى تسهم في توسعة نطاق الخبرة الحضارية فلا تقتصر على المركزية الغربية [1]، و الصورة الثانية تتمثل في تجديد أشكال وأ دوات الهجوم المضاد

---

* أستاذ متفرغ والرئيس الأسبق لقسم العلوم السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة.

- مراجعة وتوثيق: ماجدة إبراهيم، باحثة بمركز الحضارة للدراسات السياسية.

[1] راجع في ذلك عددًا من الدعوات والمساعي العلمية الغربية ومنها على سبيل المثال:

- Amativ Acharya and Barry Buzan, **Non-Western International Relations Theory: Perspectives on and Beyond Asia**, London: Routledge, 2010.

لاستيعاب واحتواء وإجهاض نماذج المقاومة الحضارية غير الغربية والدفع لتآكل ما يتجدد من مصادر قوة ذاتية لهذه المقاومة ، وهو ما يظهر في محاولة استيعاب بعضها تحت دعوى الحضارة العالمية الواحدة[٢] .

وانطلاقًا من العلاقة الحميمية بين العلم والحركة خلال مراحل صعود النموذج الغربي وتكيفه المستمر، وبناءً على كل ما كُتب عن تجليات مجموعة من الثنائيات الدالة : السلطة–المعرفة، الحركة–النظرية، الفكر –التطبيق. وأخذًا في الاعتبار سمتين أو خصيصتين وهما المؤسسية والشبكية في خدمة العلاقة بين الحركة والعلم، فإن غاية هذا النموذج الغربي كانت حماية هيكل توزيع القوة العالمية ومنظومة قيم النظام العالمي السائد، وذلك حفاظًا عل هيمنة هذا النموذج المعرفي والحضاري وتجلياته السياسية والعسكرية ...إلخ من التجليات المادية. وهذا الحفاظ يقتضي التكيف الذاتي من ناحية وتطوير الهجوم ع لى الآخر، وذلك من خلال جدلية العلاقة بين تغيير الفكر وتغيير الواقع.

وبتدبر في المسار التاريخي عبر ما يزيد عن خمسة قرون، وبالتوقف عند مفاصل المواجهة الحضارية بين هذا النموذج الغربي عبر تطوره وغيره من النماذج المتهاوية و النماذج المنافسة أو الصاعدة من جديد كالصين وبعض دول الشرق ، يمكن أن نرصد محطات متتالية : من الاستشراق التقليدي (بعد فشل الحروب الصليبية وتمهيدًا للموجة الثانية من الهجوم على العالم القديم وتدعيمًا للسياسات الاستعمارية التقليدية والجديدة)، إلى الاستشراق الجديد لقراءة وفهم نماذج المقاومة في إطار ا لدول القومية حديثة الاستقلال في منتصف القرن العشرين ، ثم الثورة الإيرانية وتوابعها حتى نهاية الحرب الباردة ، ثم ما بعد الحادي عشر من سبتمبر وتركيزها بشكل خاص على ما يتصل بالحركات الإسلامية. إن اقتراب مناهج هذا الاستشراق الجديد يقوم على توظيف مناهج العلوم الا جتماعية والسياسية الحديثة لدراسة "الظاهرة الإسلامية" بعد أن أضحى "الإسلام" يمثل تحديًا متجددًا للنظام الدولي والقوى الدولية منذ أواخر السبعينيات من القرن العشرين، كما سبق وأشار كلٌ من د.حامد ربيع[٣] ود.منى أبو الفضل[٤].

- بيتر جي كاتزنشتاين (محرر)، **الحضارات في السياسة العالمية: وجهات نظر جمعية وتعددية**، ترجمة فاضل جتكر، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، عدد ٣٨٥، فبراير ٢٠١٢.

[٢] منها على سبيل المثال:

- جيرار ليكلرك، **العولمة الثقافية: الحضارات على المحك**، ترجمة جورج كتورة، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٤.

[٣] د.حامد ربيع، **الإسلام والقوى الدولية**، القاهرة: دار الموقف العربي، ١٩٨٢.

[4] Mona Abul-Fadl, **Islam and the Middle East: The Aesthetics of a Political Inquiry**, Virginia: The International Institute of Islamic Thought, 1990.
ود.منى أبو الفضل، **الأمة القطب: نحو تأصيل منهاجي لمفهوم الأمة في الإسلام**، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥.

وعبر الربع الأخير من القرن العشرين، وبد ايات القرن الواحد والعشرين، نمت على الجانب المقابل للدراسات الاستشراقية (التي لم تُسقِط أبدًا دراسة الأديان والتاريخ والثقافة واللغة وكذلك تجلياتها السياسية والاجتماعية في نطاق الاستش راق الحديث ودراسات الشرق الأوسط ...)، أي على جانب العلوم الاجتماعية والسيا سية نمت مدارس واتجاهات تنقد مركزية "الحداثة" و"العلمانية" في هذه العلوم وتتحدى مركزيتها الغربية فتدعو إلى أمرين : من ناحية تجدد الاهتمام بدراسة القيم والثقافة والدين، ومن ناحية أخرى تعددية المنظورات الحضارية للعلوم الاجتماعية والإنسانية وفي قلبها العلوم الس ياسية وعلم العلاقات الدولية. وهذا النموذج على هذا الجانب اتخذ أكثر من مسمى، ومن أبرزها حاليًا: الدراسات المهتمة بالأبعاد الحضارية[٥]، ودراسات التحليل الحضاري[٦]، والدراسات الحضارية[٧]، والدراسات التي تحاول تطوير منظورات حضاريةغير غربية[٨]، وكذا الدراسات من منظور حضاري إسلامي، علمًا بأن الأخير يمثل اتجاهاً ومنظورًا علميًا نما في مرحلة سابقة معرفيًا وزمنيًا على تلك الاتجاه ات التنظيريةالناشئ في الأعوام الماضية، ستلي الإشارة له بشكل أكثر تفصيلاً في الصفحات القادمة .

---

[٥] وفي هذا راجع على سبيل المثال:

- بيتر جي كاتزنشتاين (محرر)، الحضارات في السياسة العالمية : وجهات نظر جمعية وتعددية ، **سبق ذكره**.

- Martin Hall; Patrick Jackson (eds.),**Civilizational Identity: The Production and Reproduction of "Civilizations",** International Relations, Series: Culture and Religion in International Relations, Palgrave Macmillan, ٢٠٠٧ .

[٦] راجع في ذلك:

Gregorio Bettiza, **Civilizational Analysis in International Relations: Mapping the Field and Advancing a 'Civilizational Politics' Line of Research**, **International Studies Review**, (2014).

[7]Andrew Linklater, "**Civilizations and International Society**", in: Robert W. Murray (editor), Robert W. Murray, Introduction, in: Robert W. Murray (editor), **System, Society and the World,** Bristol, UK: Published by e-International Relations, April 2013. pp. 25-28.

[٨] راجع في ذلك على سبيل المثال:

- Ching-Chang Chen, **The absence of non-western IR theory in Asia reconsidered**, **International Relations of the Asia-Pacific,** 2010.
- وعن مجموعة دراسات تستكشف نماذج مما يمكن منه تطوير منظورات حضارية غير غربية (صينية، كورية، هندية، يابانية، أندونيسية، وإسلامية وإن كانت هذه الأخيرة تعد دراسة من منظور إسلامي تقليدي حيث لم تشتمل على رصد الجهود العلمية لمدرسة المنظور الحضاري الإسلامي)، انظر في:

Amativ Acharya and Barry Buzan, Non-Western International Relations Theory: Perspectives on and Beyond Asia**, Op., Cit.**

وبالعودة إلى أبعاد بروز الاهتمام بالدراسات الحضارية في العلوم السياسية وخاصة نظرية العلاقات الدولية، نجد أن دافع ومبررات صعود هذا الجانب من الدراسات النظرية والتطبيقية عديدة، وتجلياتها أكثر تعددًا. إلا أنه مما لا شك فيه أنها ارتبطت في مجموعها — داخل الدوائر الغربية بصفة خاصة– بأمرين أساسيين: مراجعة ذاتية على ضوء طبيعة تحديات أو تهديدات من مراكز حضارية أخرى، وعلى رأسها الدائرة الإسلامية والدائرة الحضارية الكونفوشية والبوذية؛ فبعد أن حازت الدائرة الإسلامية الاهتمام خلال العقود الأربعة الماضية سواءً من حيث الهجوم المعرفي والفكري أو السياسي والعسكري، صعدت بعد ذلك الدائرة الصينية مع توالي الحديث عن القرن الواحد والعشرين باعتباره "القرن الصيني"، بعد أن كان القرن العشرين قرنًا أمريكيًا.

والجدير بالملاحظة على الدارس المتخصص والمدقق في اتجاهات المدارس الغربية الحديثة في العلوم السياسية، أنها تدخل الآن، مع بداية العِقد الثاني من الألفية الثالثة، حلقة جديدة من حلقات الاهتمام بالقيم والدين والحضارات وذلك على مستويين: أولهما كلي يتعلق باتجاهات ومنظورات دراسة العلاقات الدولية وموقع هذه القضايا منها ، وهذا المستوى بدأ ونما منذ نهاية السبعينيات من القرن العشرين وحتى الآن في حلقة أولى سميت "ما بعد السلوكية " في الثمانينيات ، ثم في حلقة ثانية "ما بعد الوضعية" في التسعينيات، ثم حلقة ثالثة تبلورت فيها إسهامات التيار النقدي بروافده حتى الآن، والذي أفاض في نقد المركزية الغربية لعلم السياسة ونقد علمانية وحداثية هذا العلم وفروعه انطلاقًا من مراجعة في النظرية الاجتماعية بصفة عامة وامتداداتها إلى علم السياسة [٩]. أما المستوى الثاني فيتعلق تحديدًا بالدراسات التي عنيت بدراسة البعد الحضاري في التحليل السياسي والسياسي الدولي أو ما أضحى يسمى بالتحليل الحضاري ويمثل أحد المجالات الفرعية للدراسات السياسية الدولية في تقاطعها مع روافد علمية ومعرفية أخرى من العلوم الاجتماعية وهو "الدراسات الحضارية"[١٠].

ولقد تزامن المستويان سابقا الذكر – من الاهتمام بالقيم والدين والحضارات في التحليل السياسي والسياسي الدولي– مع ما يسمى "الصعود الإسلامي على الساحة العالمية (ابتداء من الثورة الإيرانية وحربي الخليج ونهاية الحرب الباردة وحتى ما بعد ٩/١١ وصولاً إلى الثورات العربية ...) من ناحية، ومع

---

[٩] راجع في ذلك على سبيل المثال:

أميرة أبو سمرة، **مفهوم العالمية في العلاقات الدولية : دراسة مقارنة في إسهامات نظرية نقدية**، (رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ٢٠١٤.

[١٠] حول ما يسمى بالجيل الرابع من دراسات التحليل الحضاري Civilizational Analysis راجع:

- Martin Hall; Patrick Jackson (eds.),**Civilizational Identity: The Production and Reproduction of "Civilizations**", International Relations, Series: Culture and Religion in International Relations, Palgrave Macmillan, ٢٠٠٧ , ch1.

توالي أزمات الديمقراطية والرأسمالية في العالم الغربي وما لهما من تداعيات مجتمعية وخاصة في ظل موجات الهجرة من "العالم- غير الغربي" من ناحية ثانية.

ومن ثم يصبح السؤال، والذي تجيب ع نه دراسات مراكز التفكير الاستراتيجي الأمريكية والأور وبية: ما دلالة هذا التطور المعرفي والنظري والفكري على الاستراتجيات والسياسات؟ ماذا مثلاً عن تداعيات "تنظير هانتنجتون" على السياسات الأمريكية تجاه العالم الإسلا مي منذ نهاية الحرب الباردة؟ ومن ثم ما هي منتجات هذه السياسات على صعيد العالم الإسلامي ، وكيف تمثل مدخلات جديدة في منظومة الفكر والحركة الغربية؟ (على سبيل المثال : دوافع وأهداف وسياسات مشروع الشرق الأوسط الكبير ومنتجاته عبر عقدين : تجزئة المجزأ وإجهاض الثورات العربية). ونستطيع أن نكرر نفس السؤال والبحث في نفس الدلالات على صعيد دوائر حضارية أخرى : البلقان، القوقا ز، آسيا الوسطى، جنوب شرق آسيا، الحرب الهندية...الخ.

إن الحديث السابق، عن العلاقة بين السلطة والمعرفة، نزولاً من مراكز القوة الغربية العالمية إلى مراكز الاهتمام والفعل في الدوائر الحضارية الأخرى لا يعني أن هذه العلاقة ذات اتجاه واحد ، ولكن هناك اتجاهات أخرى ابتداء من مراكز الدوائر الحضارية المتنوعة فيما بين ها ونحو "المركز الحضاري الغربي الذي يدّعي العالمية"، سواء على الجانب المعرفي والفكري أو الجانب الحركي والتطبيقي، وانطلاقًا من محاولة إعادة صياغة السياسي (داخليًا وخارجيًا) وانطلاقًا من مراجعات معرفية وفكرية . إيمانا بأن الأزمات (الشرعية، الهوية، الاستقلال، التنمية، ...) هي نتاج أزمات معرفية وفكرية وليست مادية فقط.

ومن هنا يمكن الإشارة- على سبيل المثال لا الحصر- لإسهامات مدرسة المنظور الحضاري في جماعة العلوم السياسية المصرية والعربية وامتداداتها التركية والإيرانية وغيرها من الامتدادات الحضارية الإسلامية . ناهيك عن إسهامات أخرى في التنظير من منظورات بوذية وسيخية إلى جانب ما سم ي بمنظورات مسيحية أو نظريات ذات جذور مسيحية مثل نظريات الحرب المقدسة...

ويبقى السؤال: ما قدر تأثير هذه الإسهامات سواء في البناء أو التغيير في الواقع، سواء على الأصعدة الوطنية (نحو الديمقراطية والاستقلال والهوية) أو العالمية (من مثل: الدعوة إلى ديمقراطية عالمية[11] أو عدالة عالمية أو نحو أنسنة النظام العالمي...)؟

أيا كانت الإجابات والتقييمات ، وهي جد ضرورية ، **إلا أنه يكفي كخاتمة للملاحظات السابقة الإشارة إلى الأمرين التاليين:**

من ناحية: إن تجدد الاهتمام بالأبعاد الحضارية في الدراسات السياسية (الغربية) لا يستج يب (كما يدعوا البعض) لمتطلبات البناء ا لعلمي -الأكثر عالمية- فقط، ولكن يستج يب أيضا لمتطلبات الحركة

[11] نادية محمود مصطفى، **الديمقراطية العالمية من منظورات غربية ونحو منظور إسلامى فى علم العلاقات الدولية**، سلسلة الوعي الحضاري (٢)، القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، ٢٠١١.

وخدمة أهداف حماية النموذج الغربي والحفاظ على مكتسباته أو "التغيير العالمي" انطلاقاً من العلاقة العضوية بين العلم والحركة.

بعبارة أخرى، إن هذا التجدد في الاهتمام في الدوائر الغربية بالأبعاد والدوائر الحضارية الأخرى غير الغربية لا تدفعه بالضرورة أغراض علمية نبيلة؛ ولكنه بدرجة أخرى محكوم باعتبارات المصالح القومية أو مصالح النظم والتقاليد المشتركة، وفق نماذج صراع القوى التقليدية. ومن ثم، ليس من العجيب ذلك التزايد في الاهتمام بالصين وجوارها الحضاري من جانب بعض الدراسات حول الأبعاد الحضارية للسياسات الدولية بأوسع معانيها[١٢].

فهل يعني هذا أن فورة الاهتمام بالإسلام والمسلمين ووضعهم في النظام الدولي و بالعولمة والديمقراطية... الخ التي أغرقتنا بها الدوائر الأكاديمية والفكرية طوال ثلاثة عقود هي في انحسار لصالح صعود الاهتمام بـ"الجوار الحضاري الآسيوي" خلال الحلقة الراهنة من حلقات تجدد الاهتمام بالأبعاد القيمية والثقافية والحضارية في الدراسات السياسية؟ خاصة بعد أن تم رفع شعار "علم العلاقات الدولية لم يعد ولا يجب أن يظل علماً أمريكياً أو أوروبياً أو غربياً فقط[١٣]". لعله الإحساس بالتحدي الذي يفرضه الخبو التدريجي "الحضارة الغربية" والانحدار في مصادر القوة والتأثير والفعالية لصالح مراكز صاعدة للقوة من خارج الدائرة الحضارية الغربية، في حين ظل الصراع طوال ما يقرب من خمسة قرون صراع قوى تقليدي بين القوى الكبرى الاستعمارية داخل ذات الدائرة الحضارية الغربية بعد أن أخرجوا من دائرة التنافس الدولة العثمانية، بينما تجدد منذ نهايات القرن العشرين، ويبدو أنه يتزايد باضطراد، التفكير في "التدافع الحضاري" بين الغرب ونماذج حضارية أخرى عبر العالم، والذي برز مع أطروحة "صموئيل هانتجتون" حول "صدام الحضارات".

ومن ناحية أخرى، على الرغم من إسهامات معرفية وفكرية ونظرية متعددة من منظور حضاري إسلامي، في مجالات علم السياسة المختلفة، إلا أن الرابطة بين "هذا الإنتاج العلمي" وبين الحركة اللازمة

---

[١٢] راجع على سبيل المثال:

- Peter J. Katzenstein, **Civilizational Politics in World Affairs Trilogy: Sinicization and the Rise of China: Civilizational Processes Beyond East and West**, Routledge, 2012.

-Weiwei Zhang**, The China Wave: Rise of a Civilizational State,** World Century Publishing Corporation , 2012.

[13] Steve Smith, The discipline of international relations: still an American social science?, **British Journal of Politics and International Relations**, Vol. 2, No. 3, October 2000.

لتغيير حال العلم العربيوالإسلامي هي رابطة مفقودة إلى حد كبير سواء بالنسبة لحركة الجماعات والأحزاب السياسية الإسلامية (المعارضة) أو بالنسبة لحركة النظم الحاكمة، ناهيك عن صعوبات التداول والانتشار على صعيد ما دون ذلك من مستويات الحركة، أي الحركة المجتمعية والمدنية والشعبية . وتتعدد أسباب هذه الروابط المفقودة: ما بين غياب المؤسسية الفاعلة والشبكية نظرًا لقصور الموارد المادية وخاصة البشرية القادرة والراغبة على تجسير الفجوة بين العلوم المدنية والعلوم الإ سلامية. تلك الفجوة التي كلما زادت كلما زاد الانحدار الحضاري الإسلامي نظرً ا للفجوة بين الواقع والفقه، الفجوة بين العلم والح ركة، والمقصود بالعلم كل منتجاته من منظورات متعد دة وليس منظورً ا حضاريًا إسلاميًا يجدد الأصل على حساب الوافد.

ولا تقتصر أسباب عدم الفعالية على الروابط المفقودة بين العلم والحركة على الصعيد الوطني، ولكن نظرًا لافتقادها أيضًا علي الص عيد البيني (مكونات الدائرة الحضارية العربية – الإسلامية) وعلى الصعيد التعارفي العالمي (عبر الدوائر الحضارية المتنوعة) استجابة للدعوات الصادقة من أجل "نظرية علاقات دولية "عالمية" بحق ومن أجل تغيير عالمي ليصبح العا لم أكثر عدالة وإنسانية[١٤].

والحمد لله رب العالمين

[١٤] نادية محمود مصطفى، الديمقراطية العالمية من منظورات غربية ونحو منظور إسلامي في علم العلاقات الدولية، **مرجع سبق ذكره**.